قَصِيدة «تُحْفَةُ الإِخْلاصِ»

قَصِيدةٌ فِي مَدْحِ نَبِيِّنا ﷺ وفي لَوْمِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ

(تُقرأ مساءً)

يَـا رَبِّ صَـلِّ عَـلَى المَوْصُـوفِ بِـالْكَرَمِ
مُحَمَّـــدٍ وَعَـــلى الآلِ أُولِي الهِمَـــمِ

يَا نَفْسُ كَمْ ذَا التَّوَانِي فِيقِي وَانْسَجِمِي
وَاسْتَيْقِظِي وَاتْرُكِي الْعِصْيَانَ لَا تَسُمِي[١]

كَأَنَّـكِ تَبْتَغِـي الْخُلْـدَ وَلَسْـتِ تَـرَيْ
كِسْـرَى وَأَضْرَابَـهُ[٢] فِي حَيِّـزِ الْعَـدَمِ[٣]

---

(١) لَا تَسُمِي: المعنى هنا: لا ترتعي فِي الحرام.
(٢) أَضْرَابَه: أشباهه.
(٣) حَيِّزِ الْعَدَمِ: عالم الموتى.

إِلَى مَتَــــى أَنْــتِ فِي اللَّـــذَّاتِ غَارِقَـــةٌ

وَالنُّــذْرُ لِلْمَــوْتِ وَافَــتْ لا كَــمَا تَرُمِــي (٤)

تَنَبَّهِـــي قَبْــلَ أَنْ يَــدْنُو الْحِـــمَامُ (٥) فَلَــمْ

يَبْـــقَ سِـــوَاهُ فَــلاشَي الـــذَّنْبَ بِالنَّـــدَمِ

وَكُـونِي عَـنْ كُـلِّ مَـا سَـوَّفْتِ مُعْرِضَـةً (٦)

وَاسْــــــــتَغْفِرِي اللهَ إِنَّ اللهَ ذُو كــــــــرَمِ

وَلا تَعُـــودِي فَـــإِنْ عُـــدْتِ فَـــوَا أَسَـــفَاً

فَـــازَ الْمُطِيـــعُ وَقَلْبِـــي بِالْبُعَـــادِ رُمِـــي

يَـا نَفْسُ قَـدْ طَـالَ مَـا أَوْسَـقْتِ مِـنْ سُـفُنٍ

صَـــنِيعَ شَرٍّ فَـــلا يُحْـــصَى لِـــذِي قَلَـــمِ (٧)

---

(٤) نذر اقتراب الموت مِنْ شيب وهرم وغيره ظهرت لا كما تشتهي وتبتغي.
(٥) الحِمام: الموت.
(٦) يَا نفس اتركي التسويف وتأجيل التوبة وأعمال البر.
(٧) أوسقت: حمّلت. ومعنى البيت: يَا نفس قد طال ما حمّلت كأحمالَ السُفنٍ مِنْ أفعال الشر التي لا يحصيها بشر.

هَــلْ تَبْتَغِــي بِصَــنِيعِ السُّــوءِ مَكْرَمَــةً
مَــــاذَا وَإِلا تَرُومِــــي زَلَّــــةَ الْقَــــدَمِ
جِسْــمِي مَلَكْتِيــهِ حَتَّــى صَــارَ مُنْهَمِكَــاً
فِي الْمُوْبِقَــاتِ وَفِي نَــوْعٍ مِــنَ اللُّــؤُمِ
نُــوحِي[8] فَقَــدْ فَاتَــكِ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ وَقَــدْ
فَــازَ الْمُجِــدُّونَ بِالطَّاعَــاتِ فِي الْقِسَــمِ
ضَــيَّعْتِ أَوْقَاتِــكِ فِي اللَّهْــوِ وَاشْــتَهَرَتْ
أَفْعَالُــكِ السُّــوءُ فِي الأَقْطَــارِ كَــالْعَلَمِ
مَــاذَا تَقُــولِي إِذَا وَافَى الْمِيعَــادُ وَقَــدْ
صَــارَ السُّــؤَالُ وَمَــا تُبْــدِي مِــنَ الْكَلِــمِ
وَاضَــيْعَتِي مِــنْ عِتَــابِ اللهِ وَاخَجَــلِي
وَاوَقْفَتِــي عِنْــدَ ذَاكَ الْمَشْــهَدِ الْعَمَــمِ[9]

---

(٨) بمعنى التحسر والأسف والأسى على فقدان الخير.
(٩) المشْهَد العَمَم: مَشْهَدُ يَوْمِ القِيامَة الَّذِي يَعُمُّ الخَلائِق.

مَــاذَا أَقــوُلُ وَمَــا قَــدَّمْتُ مِــنْ عَمَــلٍ

سِــوَى اقْـتِرَافِي عَظِـيمَ الـذَّنْبِ وَاللَّمَــمِ[١٠]

وَاخَيْبَتِـــي أَنْ أَرَى يَــوْمَ الْقِيَامَـــةِ مَــنْ

يُعْطِـي السّـــرُورَ وَدَمْعِــي غَــارِقٌ بِــدَمِي

جَــاوَزْتِ يَــا نَفْــسُ لِلْخَمْسِــينَ لَمْ تَفِقِــي!

هَـــذَا لَعَمْـــرِيَ تَنْقِـــيصٌ بِكُـــلِّ فَـــمِ

يَــا نَفْــسُ لا تَبْتَغِــي اللَّــذَاتِ وَارْتَــدِعِي

وَارْضَيْ بِـــمَا قَـــدَّرَ الـــرَّحْمَنُ وَاسْـــتَقِمِي

يَــا قَلْــبُ أَنْصِــفْ وَسَــاعِدْنِي فَلَسْــتُ أَرَى

فِيــكَ النُّهُــوضَ فَبَــادِرْ وَارْعَــوِي[١١] وَلُمِ

وَقُــمْ عَــلَى سَــاقِ جِــدٍّ فِي مَحَبَّــةِ مَــنْ

---

(١٠) اللَّمَم: صَغَائِرُ الذُّنوب.

(١١) بَادِرْ وَارْعَوِي وَلُمِ: أسرع وارتدع ولُم نفسك على التقصير.

لَـــوْلاهُ مَـــا أُنْـــزِلَ التَّنْزِيـــلُ بِـــالْحِكَمِ[12]

كَـــلّا، وَلَا سَـــطَعَ الإِيجَـــادُ مِـــنْ أَحَـــدٍ

كَـــلّا، وَلا أُرْسِـــلَتْ رُسْـــلٌ إِلَى أُمَـــمِ

قَـــالُوا تَمَـــدَّحْ، فَمَـــدْحِي فِي جَلَالَتِـــهِ

عَـــيْنُ الْقُصُـــورِ بِخَـــيْرِ الْعُـــرْبِ وَالْعَجَـــمِ

مَـــاذَا امْتِـــدَاحِي بِمَـــنْ لَـــولاهُ مَـــا خُلِقَـــتْ

عَـــوَالِمٌ بَـــلْ وَلا قُـــوْرٌ[13] مَـــعَ الأَكَـــمِ[14]

وَلا سَـــــــمَاءٌ وَلا أَرْضٌ وَلا مَلَـــــــكٌ

---

(١٢) قم واجتهد فِي محبة سيدنا محمد ﷺ الَّذِي لولا بعثته رحمة للعالمين ما أنزل القرآن بالآيات المحكمة، فنزول القرآن مقرون بنبوّته وبعثته.

(١٣) القُوْر: جمع قارَة، وهي الأرض ذات الحجارة السوداء.

(١٤) الأَكَم: الجبال الصغيرة.

وَلا رَسُـــولٌ وَكَـــانَ الْكُـــلُّ فِي عَـــدَمِ[١٥]

مِـــنَ الْجَـــمَالِ الْإِلَهِـــي كَـــانَ مَظْهَـــرُهُ

وَمِنْـــهُ بَـــدْرُ الْوُجُـــودِ الْمُطْلَـــقِ الْفَخِـــمِ

فَـالْعَرْشُ وَالْفَـرْشُ[١٦] وَالأَفْـلاكُ أَجْمَعُهَـا

مِـــنْ نُـــورِ طَلْعَتِـــهِ هَلَّـــتْ بِـــذِي الْعِظَـــمِ

وَالأَنْبِيَـــا وَجَمِيـــعُ الرُّسْـــلِ قَاطِبَـــةً

كُـــلٌّ لَدَيْـــهِ مَـــعَ الأَمْـــلاكِ كَالْخَـــدَمِ

---

(١٥) لَولاهُ مَا خُلِقَتْ عَوَالِمٌ... وَكَانَ الْكُلُّ فِي عَدَمِ: عَنْ ابْنِ عَباسٍ: «أَوْحى اللهُ إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ: يَا عيسى، آمِنْ بِمُحَمَّدٍ وَأْمُر مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ أُمَّتِكَ أَنْ يُؤمِنوا بِهِ، فَلَوْلا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُ آدَمَ، وَلَوْلاهُ مَا خَلَقْتُ الجَنَّةَ وَالنَّار..» قالَ الحاكمُ: حَديثٌ صَحيحُ الإسْنادِ. وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ مَرفُوعاً: «أَتانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، إنَّ اللهَ يَقُولُ: لَولاكَ مَا خَلَقْتُ الجَنَّةَ، ولَولاكَ ما خَلَقْتُ النَّار» (رواهُ الدَيْلَميُّ فِي مُسْنَدِهِ، وَذَكَرَهُ السُبكيُ فِي شِفاءِ السُقام وصَحَّحَهُ).

(١٦) الفرش: الفضاء الواسع أَوْ تأتي بمعنى الأرض.

وَالْكُتْبُ أَضْحَتْ بِهَذَا الشَّأْنِ نَاطِقَةً[١٧]

فَدَعْ مَقَالَةَ غُمْرٍ[١٨] ظَالِمٍ أَثِمِ

فَهُوَ السَّفِيرُ لَنَا فِي دَفْعِ نَازِلَةٍ

وَهُوَ الْعِيَاذُ لَنَا فِي كُلِّ مُزْدَحَمِ

وَهُوَ الْغِيَاثُ الَّذِي تُهْدَى نَوَائِلُهُ

لِلْقَاصِدِينَ كَذَاكَ الْبَابُ لِلْحِكَمِ

فَامْدَحْ كَمَا شِئْتَ فَهُوَ الْفَذُّ مَرْتَبَةً[١٩]

وَلَيْسَ فَوْقَهُ إِلَّا اللهُ، فَافْتَهِمِ

يَا قَلْبُ فَاجْنَحْ لَهُ كَيْ تَهْتَدِي وَتَفُزْ

(١٧) الكتب الكثيرة نطقت بالأحاديث والدلائل عَلَى عظيم شأنه ورفيع مقامه ﷺ.

(١٨) لا تهتم لكلام ظالم بليد الفهم لا يعرف قدر نبيه ﷺ إذ ينهاك عَنْ المبالغة فِي مدحه.

(١٩) الْفَذُّ مَرْتَبَةً: صاحبُ المَرْتَبَةِ الفَذَّةِ الفَرِيدة.

يَـا صَـبُّ[20] أَخْلِـصْ وَلُـذ بِالْمُصْـطَفَى

وَاخْلَـعْ عِـذَارَكَ[22] وَافْنَـى فِي مَحَبَّتِـهِ

وَأَرْسِـلْ دُمُوعَـكَ مِمَّـا فَـاتَ فِي الْقِـدَمِ

وَخَـالِفِ الـنَّفْسَ وَالْـزَمْ بَـابَ رَأْفَتِـهِ

عَسَـاهُ يُسْـدِيكَ[23] مَـا تَرْجُـو مِـنَ الـنِّعَمِ

وَقُـلْ بِـذُلِّكَ[24]: يَـا خَـيْرَ الْخَلائِـقِ، يَـا

مَـنْ خَصَّـهُ اللهُ بِـالتَّعْطِيفِ وَالْكَـرَمِ

عُجْتُ[25] الْحِمَى أَحْتَمِي مِنْ سُوءِ مَعْصِيَةٍ

(٢٠) الصَبُّ: العاشِق.
(٢١) هِمْ: المقصود، هِمْ بمحبته.
(٢٢) اخْلَعْ عِذَارَك: خلع العذار كناية عَنْ ترك الحياء، والمراد هنا أَنْ لا تستح مِنْ محبتك للنبي ﷺ أمام الجاهلين الَّذِينَ لا يعرفون قدره، ولا تخجل مِنْها فهي شرف لك.
(٢٣) يُسْدِيك: يُعطيك.
(٢٤) وَقُلْ بِذُلِّك: أي: قل وأَنْتَ فِي حالة من الذِّلة والمسكنة.
(٢٥) عُجْتُ الْحِمَى: أَقَمْتُ بِهِ. وَالحِمَى هُنا هُوَ حَضْرَةُ الله المَحْمِيَّةُ المُصَانَةُ.

جَنَتْهَا نَفْسِيَ جَوْفَ الأَلْيُلِ الدُّهُمِ[٢٦]

وَيَا لَهَا مِنْ ذُنُوبٍ سَوَّدَتْ صُحُفِي

وَأَوْرَدَتْنِي حِيَاضَ الْفَوْتِ وَالنِّقَمِ

إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فَمَنْ لِلْعَبْدِ يُنْقِذُهُ

مِنْ حَرِّ نَارٍ تُذِيبُ الْجِسْمَ بِالضَّرَمِ[٢٧]

ضَيَّعْتُ أَيَّامِي بِالتَّسْوِيفِ[٢٨] فَانْصَرَمَتْ

مِنِّي الْمَحَاسِنُ حَتَّى صِرْتُ فِي هَرَمِ

وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ أَرْجُو بِهِ مِنَحًا

سِوَى مَحَبَّتِكُمْ مَمْزُوجَةً بِدَمِي

---

(٢٦) الأَلْيُلِ الدُّهُمِ: الليالي الكالحة.
(٢٧) معنى البيت: إنْ لم تستغفر الله لي يَا رسول الله وتشفع لي عنده بأن ينقذني من النار فلن يفعل ذَلِكَ غيرك، إذ لا أحد لَهُ عند الله من الجاه والمكانة ما لك.
(٢٨) التَّسْوِيف: التأخير والمماطلة، حيث يكثر العبد مِنْ قوله: سوف وسوف.

يَـا سَـيِّدِي يَـا رَسُـولَ الله خُـذْ بِيَـدِي[٢٩]

يَـا مَلْجَئِـي وَاحْبُنِـي[٣٠] مِـنْ فَيْضِـكَ الْعَمِـمِ

وَمِـــــنْ عَوَائِـــــدِ آبَـــــائِي بِآلِـــــكَ لا

تَحْرِمْنِي[٣١] عِنْدَ احْتِيَاجِي أَنْتَ مُعْتَصَمِي

---

(٢٩) النداء هنا للطلب، كما ينادي العطشان مخلوقا يغيثه بالماء. وقد ثبتت استغاثةُ الخلقِ يومَ القيامةِ بالنبي ﷺ في أمر لا يقدر عليه مخلوق. وذلك في حديث البخاري وغيره: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد فيشفع ليقضى بين الخلق..». والذاكرُ هنا يتأمل موقف القيامة ومكانة صاحب المقام المحمود الذي يشفع لأمته. وللمزيد حول هذا عد إلى باب التوسل من كتاب «الدلالة النورانية».

(٣٠) احبني: امنحني.

(٣١) وَمِنْ عَوَائِدِ آبَائِي بِآلِكَ لا تَحْرِمْنِي: أي بحق آل بيتك لا تحرمني من الصِّلات والعطايا التي تكرّمتَ بمثلها على آبائي وأجدادي.

هَـبْ أَنَّنِـي غَـيْرُ فَـرْعٍ عَبْـدُكُمْ وَكَفَـى[٣٢]

وَالرِّفْـقُ بِـالرِّقِّ مِـنْ مُسْـتَظْرَفِ الشِّـيَمِ[٣٣]

أَوْصَـــيْتُمُوا بِالضَّـــعِيفَيْنِ فَهَـــا أَنَـــاْ مِـــنْ

عَبِيـــدِكُمْ فَـــارْحَمُوا ضَـــعْفِي وَمُقْتَحَمِـــي

وَعَـــامِلُونِي بِـــمَا تَـــدْرُوهُ مِـــنْ صِـــلَةٍ

كَـــمَا أَمَـــرْتُمْ بِإِيصَـــالٍ لِـــذِي الـــرَّحِمِ

فِي الْحَـــالَتَيْنِ جَـــدِيرٌ بِالصِّـــلاتِ فَـــمَا

أَنْفَـــكُّ عَـــنْ جُـــودِكُمْ إِلا بِمُنْـــتَظِمِ[٣٤]

---

(٣٢) أَيْ أَنني لَو لَم أَكن مِنْ ذَوي رَحِمِكُم وَنَسْلِكم فإِنِّي مِنْ رَقِيقِكُم وَخَدَمِكُم.. وَلا أَخرُجُ عَنْ هذينِ الحَالَين..

(٣٣) أي أن الرفق بالرق من الأخلاق المحمودة والفعال المحبوبة، وهذه هي أخلاقكم يا سيدي يا رسول الله.

(٣٤) فِي الحالَتَينِ جَديرٌ بِعَطائِكُمْ فَلا يَتْرُكني كُرَمُكُم إِلا بما يَنْتَظِم بِهِ أَمْري وَيَصْلُح بِهِ حَالي.

وَلَسْتُ أَبْغِي مِنَ الْجَدِّ[٣٥] الشَّفُوقِ سِوَى

التَّوْفِيــقِ يَطْلُبُــهُ مِــنْ بَــارِئِ النَّسَــمِ

لِعَبْــدِهِ الْعَــاجِزِ الْمِسْــكِينِ حَيْــثُ لَكُــمْ

جَــاهٌ رَفِيــعٌ بِــهِ نَنْجُــو مِــنْ الــنِّقَمِ

وَهَــذِهِ تُحْفَــةُ الْإِخــلاصِ قَــدْ نُسِــجَتْ

أَشْكُو بِهَا مَا عَرَى قَلْبِي مِنَ السِّقَمِ[٣٦]

حُسْــنُ اعْتِقَــادِي بِــأَنَّ الْجَــدَّ يَقْبَلُهَــا

لا شَــكَّ، بَــلْ وَيَجِــدْ كَــوْنِي مِــنَ الْخَــدَمِ

---

(٣٥) الْجَدّ: أي النبيّ ﷺ فهو جَدّ ناظم القصيدة الشيخ عبدالرحمن الشريف. وبَارِئُ النَّسَم: الله تعالى خَالِقُ النُّفوس. ومعنى البيت، أنني فيما أطلبه من النبيّ ﷺ إنما أتوسل به وبدعائه لكي أنال توفيق ورضا وعطاء الله. والعطاء والخير كله من الله تعالى ولا أحد ينفع أو يضر بذاته استقلالا إلا هو، وإذا نُسب النفع والضر لغيره فإنما ذلك من المجاز.

(٣٦) السِّقَم: الأَمْراض وَالآفاتْ.

وَلا يَــدَعْنِي فَقِــيرَ الْحَــالِ مِــنْ جِهَتَــيْ

دِينِــي وَدُنْيَــايَ وَهُــوَ الْــوَافِيُ الــذِّمَمِ

أَيَــتْرُكُ الْأَصْــلُ فَرْعَــاً قَــدْ نَحَــاهُ هَــوَىً

مِــنْ غَــيْرِ مَــدٍّ لأَمْــرٍ غَــيْرِ مُلْتَــئِمِ (٣٧)

---

(٣٧) أي لا يترك الأصل (وهو هنا النبي ﷺ) فرعا (وهو هنا من كان من نسله أو من خدمه) قد أزاغه هوى وأماله لحال غير صالح، بدون أن يمده بما يهديه ويصلح حاله ويعيده إلى الرشاد. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] والمعنى في الآية شامل؛ في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، ذلك لأن الأنبياء أحياءٌ حياةً خاصة بهم، كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو يعلى عن أنس بن مالك: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون». وكما صحّ من اجتماع النبي ﷺ بالأنبياء ليلة الإسراء، وانتفاع الأمة بنبي الله موسى عليه السلام في تخفيف الصلاة وهو في دار البرزخ. وقس على ذلك.

حَاشَـــا وَكَــلا بِـــأَنْ يُقْـــلَى[٣٨] لِغَفْلَتِـــهِ

وَاللهِ وَاللهِ هَـــــذَا أَعْظَـــــمُ الْقَسَـــــمِ

يَـــا رَبِّ بِالسَّـــيِّدِ الهَـــادِي الْبَشِـــيرِ كَـــذَا

بِآلِـــهِ الْغُـــرِّ[٣٩] مَـــنْ هُـــمْ سَـــادَةُ الْحَـــرَمِ

هَـــبْ لِي مَرَامِـــي وَنَفِّـــذْ كُـــلَّ مَـــا طَلَبَـــتْ

نَفْسِي مِـنَ الخَـيْرِ وَانْطِـقْ بِالصَّـوَابِ فَمِـي

وَاحْفَظْنِـي مِـنْ كَيْـدِ كُـلِّ الْحَاسِـدِينَ وَلا

تَجْعَـــلْ رَجَـــايَ إِلَهِـــي مُلْقَـــى فِي الْعَـــدَمِ

وَوَسِّــــعِ الـــــرِّزْقَ وَالأَبْنَـــــاءَ نَجِّهِـــــمُ

مِـــنْ كُـــلِّ سُـــوءٍ وَأَعْلِـــنْ سَـــيِّدِي عَلَمِـــي

وَاغْفِـــــرْ إِلَهِـــــي لِتَالِيهَـــــا وَنَاظِمِهَـــــا

نَجْلِ الْحُسَيْنِ[٤٠] الشَّرِيفِ الْعَاجِزِ السَّقِمِ

---

(٣٨) يُقْلَى لِغَفْلَتِهِ: يُترَك لغفلته ويُكرَه بسببها .
(٣٩) الْغُرّ: الأشراف. ومفردها أغرّ.
(٤٠) الحسين هنا هُوَ سيدنا الشيخ حسين الشريف الَّذِي كان شيخ

وَاسْـــتُرْ عُيُـــوبِي وَأَنْعِـــمْ لِي بِخَاتِمَـــةٍ

حَسْـنَاءَ تَمْحُـو الَّـذِي قَـدْ كَـانَ فِي الْقِـدَمِ

وَاجْعَـــلْ صَـــلاتَكَ بِـــالتَّكْرِيمِ دَائِمَـــةً

عَـلَى الَّـــذِي سَـادَ قَطْعَـاً سَـائِرَ الْأُمَـمِ

وَالآلِ وَالصَّـــحْبِ وَالْأَتْبَـــاعِ قَاطِبَـــةً

مَـا غَـرَّدَ الطَّـيْرُ فِي أَرْجَـاءِ ذِي سَـلَمِ(٤١)

وَمَـــا شَـــدَا الْعَبْـــدُ لِلـــرَّحْمَنِ مُتَّعِظَـــاً

(يَـا نَفْسُ كَـمْ ذَا التَّـوَانِي فِيقِـي وَانْسَـجِمِي)

زاوية الأشراف والمتوفى ١٢٥٨هـ - ١٨٤٢م. ونجله: ابنه؛ سَيِّدُنا عَبْد الرَّحمْنِ الشَّرِيف مُؤَسِّسُ الطَّرِيْقَةِ الخَلْوَتِيَّةِ الجَّامِعَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

(٤١) أي: كلّما غَرَّدَ الطَّيْرُ فِي أَرْجَاءِ ذِي سَلَمِ. وذو سَلَمِ: موضعٌ بينَ مَكة والمدينة.